نورمان
فنكلستين

نهاية فلسطين؟
حُكْم التَّـــــاريخ*

ترجمة: سماح ادريس وأيمن حنا حداد

يلاحظ نعوم تشومسكي أنَّ من بين الخصائص اللافتة لـ«هيجان الستينات» [في الولايات المتحدة في هذا القرن] هو أنّه رَفَع الوعي «الثقافي والأخلاقي» للكثير من مواطني الولايات المتحدة. ولعلَّ المثال الأسطع على ذلك هو الإدراكُ الحالي لواقعة الغزو الأوروبي للأميركيتيْن. ذلك أنَّ قلّةً قليلةً فحسب ـ وهو ما يُناقض بوضوح الماضيَ القريبَ نفسَه ـ ستجد في ذلك الفصل المكتوب من تاريخ العالم عَدْلاً، دعْ عنك أنّها لن تجد فيه شهامةً أو نبلاً. ويمكن المرءَ أن يتوقّع أن يندم الإسرائيليون ذاتَ يوم، هُم الآخرون، على ما ارتُكِبَ بحقّ السكّان الأصليين لفلسطين. والواقع أنَّ عمليةَ الاحتلال، وتبريراتِ هذا الاحتلال أيضاً، متشابهةٌ تشابهاً مذهلاً في الحالَيْن.

يمجّد ثيودور روزفلت، في كتابه السَّرديّ النُّصبيّ: **انتصار الغرب** The Winning of the West، «انتشارَ الشعوبِ الناطقةِ بالإنكليزيّة فوقَ بقاع العالم المبدَّدَةِ اليَبَاب» بوصفه «الملمح الأبرزَ في تاريخ العَالم» و«الأبعدَ أثراً وأهميةً». ويقول إنّه لم تكن ثمةَ «أيُّ حقبةٍ من التوسّع العِرْقي» بمثل «تلك السَّعة أو السّرعة» ـ ولا بمثل تلك [الدَّرجة الفائقة من] «العدالة» كما كان سيبدو [لروزفلت وأمثاله]. كانت الأرضُ بِكْراً، ولم يكن للسُّكان الأصليين أيُّ مطالب قانونيّةٍ جوهريةٍ بها. فلقد «انتقل» المستوطنون البيضُ «إلى قفارٍ غيرِ مسكونة... لم تكن الأرضُ في الواقعَ ملْكاً لأحد... ولم يَطْرد المستوطنون منها أحداً. بل الحق أنَّ الهنود لم يكونوا يمتلكون أيَّ حقٍّ شرعيٍّ فعليٍّ في هذه الأرض».

ومع ذلك، فإنّ عجلةَ التقدّم ـ لا العدالة ـ هي التي كانت تبدو كأضخم ما يكون في تأويل روزفلت. وبصورة أدقّ، كان التقدم عنده هو المعيارَ الحقيقيَّ للعدالة. فالقَوْلُ بأنّ «كلَّ حروبِ الفتح شَرٌّ بالضرورة» ينمّ عن «رؤية قصيرةِ النظر»، لأنَّ ما يحدِّد ما إذا كان «غزوٌ مّا مُفْعَماً بالشَّر أو بالخير للجنس البشريّ إنَّما هو القيمةُ المقارنة comparative worth للشعوب الغازيةِ والمغزوّة». وفي حالة أميركا الشّمالية، أعلن المستعمرون، و«وبحقٍّ»، أنَّ القارة «إرثٌ لهم» و«قاتلوا بالنيابة عن مصير العِرْق بمجمله» حين احتلوها. لقد كان «مقدَّراً لهذه القارة أن تكون إرثاً لأبنائهم ولأبناءِ أبنائهم»؛ ذلك أنّه من الأهمية القصوى بمكان ـ «لمصلحة الجنس البشريّ» و«لمصلحة الحضارة» ـ أن ينال أمريكا الشمالية «شعبٌ بارعٌ [مُتَفَوِّق]» كهذا.

لقد آمن روزفلت أنَّ «خيرَ العالم يقضي بأن يسيطرَ العِرقُ النَّاطقُ بالإنكليزية ـ وبكل فروعه ـ على أكبر مساحةٍ ممكنةٍ من سطح العالم». وأقرَّ أنَّ ذلك يعني «إنزالَ البلاء والمعاناة والويل والتعاسة [بالشعوب الأخرى]»؛ غير أنَّ هذا هو ثمنُ التقدم: «كانَ من المرجَّح ألا يسيرَ العالمُ قُدُماً على الإطلاق، لَوْ لَمْ تُزَح الشُّعوبُ البربريَّةُ والمتوحّشةُ أو تُخْضَعْ** نتيجةً للاستيطانِ المسلَّح الذي قامتْ به في أراضٍ غريبةٍ شعوبٌ تُمسك بأيديها مصيرَ الزّمان».

بل الحقُّ أنَّ «آلامَ النَّزْع» التي أطلقها «العِرقُ الأدنى» قد كانت «في النهاية هي هي آلام المخاض لولادةِ شعبٍ جديدٍ وحيويّ». وتبعاً لهذا المخطَّطِ العظيم للأشياء، لم تُرتَكَبْ أيُّ جريمةٍ ضدّ سكّان أمريكا الشّمالية الأصليين[!] «فالحقّ أنَّ العدالة قد كانت إلى جانب المستوطِن والرّائِد، إذ لم يكن ممكناً أن تُبقى [أمريكا الشمالية] مجرّد منطقةٍ مخصَّصَةٍ للصَّيْد يَمْلكها متوحّشون قَذِرُونَ جديرونَ بالازدراء»! وقد كان روزفلت واضحاً وصريحاً بخصوص ما ينطوي عليه هذا المبدأ من مضامينَ إباديّةٍ [للسكّان الأصليين بأسرهم] حين قال: «إنَّ أكثر الحروب المبرَّرةِ أخلاقياً هي ـ في نهاية المطاف ـ الحربُ ضد المتوحّشين، وإنْ كانت أيضاً عُرضةً

---

* ـ الصفحات الأخيرة من الفصل الأخير من كتاب فينكلستين: **صعود فلسطين وأفولها ـ رواية شخصية لسنوات الانتفاضة**، منشورات جامعة مينيسوتا، ١٩٩٦. وتعتذر الآداب عن عدم نشر هوامش هذا البحث لشدة طولها (إذ تشكل ثلاثة أرباعه!) رغم أهميّتها التوثيقية البالغة.

** ـ displacement تعني: الإزاحة، ولكنها تعني أيضاً العَزْل والتنحية. وأما submersion فتعني الإخضاع لكنها في الأصل تعني الإغراق [تحت الماء] والحَجْبَ والطَّمْسَ. (المترجم)

لأن تكون أكثرَها رعباً ولاإنسانيةً. إنّ المستوطِنَ الفظَّ والشَّرسَ الذي يَطْرد المتوحِّشينَ من الأرض يجعل كلَّ رجلٍ متحضِّرٍ مَديناً لَهُ». وليس أيُّ ادّعاءٍ معاكسٍ، بحسب روزفلت، إلاَّ ثرثرةً لا طَائِل تحتها:

> إنّها لأخلاقياتٌ مُلتويةٌ وفاسدةٌ وسخيفةٌ تلك التي تحرِّم مَسارَ فَتحِ قَلَبَ قاراتٍ كاملةً إلى قواعدَ لأممٍ قويةٍ ومزدهرةٍ ومتحضِّرة. وعلى كل الرِّجال ذوي الفكر السليم والحكيم ان يَنْبذوا ـ وباحتقارٍ نافدِ الصَّبر ـ الدَّعوى التي تقول بأنّ على هذه القارات ان تُحْفَظَ لفائدةِ قبائلَ متوحِّشةٍ مشتَّتةٍ لم تكن حياتُها إلاّ بدرجاتٍ فحسبُ أقلَّ معنًى وتشتُّتاً وتوحُّشاً من حياة الوحوش البريّة التي تشترك وإيّاها [والمقصود: تلك «القبائل»] في ملكيّةٍ واحدة.

وبالمجمل، «فإنْ نحن فشلنا في التصرّف تبعاً لنظرية الشعب المتفوِّق... سادتِ البربريةُ والوحشيّةُ والعراقيلُ الحقيرةُ أغلبَ الكرة الأرضية».

ولقد كان تبريرُ ونستون تشرشل* للغزو اليهودي لفلسطين بمثابة ترجيعٍ لحجج روزفلت. فبعد أن قارن تشرشل بين الفلسطينيِّ العربيِّ وكلبٍ في مَعْلَف، أكَّدَ ما يلي:

> انا لا أوافق على أنّ الكلبَ في المعلف يملك الحقَّ النّهائيَّ في هذا المعلف، حتى لو كان قد اضطجع فيه وقتاً طويلاً جداً. انا لا أُقرّ بذلك الحق. انا لا اقرّ، مثلاً، بأنّ ظلماً كبيراً قد ارتُكِبَ بحقِّ الهنود الحمر في أميركا، أو بحقِّ السُّود في اوستراليا. انا لا اقرّ بأنّ ظلماً كبيراً قد ارْتُكِب بحقّ هذه الشعوب؛ ذلك لأنّ عِرْقاً اقوى، عِرْقاً من درجةٍ اعلى، عِرْقاً ـ هو على أيِّ حالٍ، وأَنْصِفْه بالوصف التالي ـ أكثرَ خبرةً بالعالم، قد جاء وحلّ مكانها.

لقد كانت المِنَّةُ [الإلهيةُ] الأكثرُ شفاعةٍ، بحسب روزفلت، هي أنّ الغزو الذي قامت به الولاياتُ المتحدةُ كان ـ بالطبع ـ أرحمَ غزوٍ على الإطلاق: «فليس ثمة أُمَّةٌ غازيةٌ أو مُستَعْمِرَةٌ عاملتْ مالكي الأرض المتوحشين بمثل السَّمَاحَةِ التي عاملتْ بها الولاياتُ المتحدةُ [الهنودَ الأصليين]». ولقد كان مصيرُ الهنود التشيروكيين** نموذجاً على «سماحة» حكومة الولايات المتحدة. والواقع أنّ عملية إزاحة التشيروكيين تجسِّد ـ بقَسَماتها الرئيسية ـ الخصائص الأساسية لمصير كثيرٍ من الشعوب التي تعرَّضَتْ للاحتلال، ومن ضمنها الشَّعْبُ الفلسطينيُّ. ولهذا السبب سيقدِّمُ تفحُّصٌ مفصَّلٌ لمصير الأمّة التشيروكيّة، بعلاقاتها بالمستوطِنين المتاخمين وبحكومة الولايات المتحدة، مثالاً موازياً لمصير الفلسطينيين في صراعهم مع المستوطنين اليهود وإسرائيل. وبالرغم من أنّ العمليتيْن متباعدتان جداً من حيثُ الزمانُ والمكانُ والحضارةُ [أو الثقافةُ]، فإنّ هناك أوجهَ شبهٍ مُذهلةً بينهما من حيثُ خطابُ النظاميْن الغازييْن كليهما وتكتيكاتُهما وتبريراتُهما القانونيةُ واستخدامُهما للعنف.

لقد بلغ تعدادُ الشعب التشيروكي عشيَّةَ الغزو الأوروبي، ربّما، حوالي ثلاثين ألفاً، وكانوا يسيطرون على حوالي مئةٍ وأربعةٍ وعشرين ألف ميلٍ مربع. غير أنّ عددهم في بداية القرن التاسع عشر تضاءل إلى ما يقل عن ثلاثةَ عشرَ ألفاً، وتقلّصتْ مناطقُ سيطرتهم إلى ما لا يزيد عن سبعةَ عشرَ ألف ميلٍ مربّع. وفي القرن التالي جُرِّدَ التشيروكيُّون من كل أملاكهم تقريباً، ولم يصل تعدادُهم إلى ما كان عليه قبلَ الغزو.

كان التشيروكيون قد أقاموا أوّلَ اتّصال بمستَعْمَرَةٍ [مستوطنةٍ] إنكليزيّة في منتصف القرن السابع عشر. وكانت مستعمرةُ ڤيرجينيا قد أنهتْ مؤخّراً نزاعاً طويلاً ومميتاً مع شعب البوهاتان Powhatans، وهو نزاع استَبَق مصيرَ التشيروكيين. وليس من التمحُّل أن نجد في حرب الإنجليز ـ البوهاتان الثانيةِ نموذجاً مبكّراً عن الحرب الإسرائيلية ـ العربية عام ١٩٤٨. فقد أعلنتْ مستعمرةُ ڤيرجينيا الحربَ، متَّخذةً من هجوم هنديٍّ ذريعةً، و«انتهجتْ بعد ذلك سياسةً كانت قد تمنَّتْ دائماً أن تنتهجها، وهي سياسةُ مصادرةِ الأراضي مصادرةً تامةً وترحيلِ السكّان ترحيلاً تاماً» بحسب كلمات كيركپاتريك سايل. ويتذكّر أحدُ المستوطنين ما يلي:

> نحن، الّذين لم نكن حتى الآن نمتلك من الأرض بأكثر ممّا يمتلكون من اليباب... قد يكون لنا ـ بحقِّ الحرب وقانون الأمم ـ أن نغزو البلاد وندمِّر أولئك الّذين يسعَوْن إلى تدميرنا. وبهذا نتمتع بأماكنهم المزروعة... ونمتلكُ نتاجَ عمل الآخرين. إنّ أراضيهم المُفْرَغة في كل قراهم (والتي تَقَعُ في أخصب الأماكن من الأرض) سوف نَسْكُنها نحنُ.

وانتهج المستعمرون الإنكليزُ الأوائلُ (بعكس الفرنسيين والإسبان) سياسة النموّ المنفصل separate development، وذلك تحاشياً للذَّوبان في السّكّان الأصليين. وبالرغم من الخطاب الرسميّ تابع الأميركيون الأسلوبَ الأساسيَّ ذاته قبل الثورة وبعدها. وكتب رونالد ساتز أنّ «كُلَّ رئيس أمريكي منذ تشكيل الحكومة قد فكّر جدّياً في نقل الهنود transfer إلى مناطق خارج الحدود الجغرافية للولايات المتحدة»؛ وتخيَّل جورج واشنطن «سُوراً صينياً» يَفْصل البِيضَ عن الهنود.

---

* ـ رئيس وزراء بريطانيا بين ١٩٤٠ و١٩٤٥، ثم بين ١٩٥١ و ١٩٥٥. (المترجم)

** ـ شعبٌ هنديٌّ أميركيٌّ، من «تنيسي» وكارولاينا الشمالية في الأصل. (المترجم)

في العام ١٧٢١، أُجْبِر التشيروكيون ـ من خلال معاهدةٍ مع مستعمرة كارولاينا الجنوبية ـ على التخلّي عن أراضٍ لهم للمرة الأولى في حياتهم. وما كُتب في هذه المعاهدة وفي كل المواثيق المتتابعة التالية قد كان تنويعاتٍ على الفكرة الرئيسية عَيْنها: فكرةِ «سلامٍ دائمٍ من الآن فصاعداً» بين الولايات المتحدة والأمّة التشيروكية. وقد علّق الزعيمُ التشيروكيُّ ريتشارد ماك بَتيس Bettis بسخرية ومرارةٍ قائلاً: «إنّ كلَّ عبارةٍ عن الصداقة لتُتْبَعُ بوصفٍ لما تأخذه الحكومةُ من القبيلة». ويلخّص جايمس موني Mooney حقبةَ ما قبل الثورة، فيكتب: «أنّ المَدّ الذي تشهده هجرةُ البيض يشتدّ ويتجاوز الجبالَ بالرّغم من كلّ الجهود لكبحه»، و«أنّ هذه الحقبة... تتميّز قبل كل شيء بعدد المعاهدات التي تخلّى فيها الهنودُ عن أراضيهم؛ وقد كانت كلُّها تَسعى ـ دون جدوى ـ إلى وضع حاجزٍ دائم بين الهنود وبين الموجة المتقدّمة من الاستيطان الأبيض».

غير أنّ التركيز الحصريّ على الانتهاكات التي تعرّضَتْ لها هذه المعاهداتُ يُضَيِّع النصفَ الأهمَّ الآخرَ من القصّة. ذلك أنّ المعاهدات نفسها كانت ـ بل كان يجب أن تكون ـ نتيجةً للإكراه. يلاحظ ساتز في هذا الصدد «أنّ المفوّضين الحكوميين قد استخدموا القوة، والرشوةَ، والخِداعَ، والتهديداتِ ـ ضمنَ أشياء أخرى ـ لإقناع القادة الهنود بالتوقيع على معاهداتٍ يتخلّوْن بموجبها عن الأرض». وهذه التكتيكاتُ تدلُّ على الحقيقة العامة القائلة بأنّ المستوطنين البيض لم يستطيعوا أن يأملوا بانتزاع الأرضِ من سكّانها الأصليين إلاّ باستخدام القوة. ويُقرّ روزفلت ـ بكلماتٍ سيردّد القادةُ الصهاينةُ في فلسطين صداها بعد عقدٍ من الزمن ـ بأنّ الحروب:

> كانت محتومةً في الظروف الفعلية للمستوطنات. فإنْ قرّرنا أنّه كان على أرض الهنود أن تؤخذ، وأنّ على الرجال البيض أن يَسْتوطنوا القارةَ، فإنّ من الواجب الإقرارَ أيضاً بأنّ المستوْطنات لم تكن ستقام إلاّ بعد الحرب... لم يكن ممكناً امتلاكُ البلاد في أيّة ظروفٍ متشابكة إلاّ نتيجةً لحربٍ، أوْ لسلمٍ يُحْرِزُ مخافةَ وقوعِ حَرْبٍ.

وبناءً على ذلك، أكّد روزفلت أنّ التمييز بين التخلّي عن الأراضي بواسطة المعاهدات، والتخلّي عنها بواسطة الحرب، كان تمييزاً مصطنعاً. ففي الحالين كلتيهما، على نحو ما يُقرّ مؤرِّخُ الغرب الأمريكي (بعكس المؤرخين الصهاينة)، كان الأمرُ فعلَ غزوٍ واحتلال:

> عند النظر إلى الأمور من زاوية النتائج النهائية، لم يكن ثمة إلاّ فرقٌ ضئيلٌ بالنسبة إلى الهنود بين أن تؤخذ أرضُهم بالمعاهدة أو بالحرب... لم تكن هناك معاهدةٌ ترضي البيض، ولم تكن هناك معاهدةٌ تَخْدم حاجاتِ الإنسانية والحضارة، إنْ هي لم تُعطِ الأرضَ للأميركيين باللاتَحفُّظِ عَيْنِهِ الذي تعطيهم إيّاهُ أيُّ حربٍ ناجحةٍ يخوضونها. بل الحقّ أنّ الأراضي التي انتُزِعتْ من الهنود قد كُسِبتْ بالمعاهدات بمقدار ما كُسبتْ بالحرب. ولكنّ الحرب قد كانت دائماً تقريباً هي التي تَضْمن نجاحَ المعاهدة [من وجهة نظر الحكومة]. وإن لم يَكن ذلك بالحرب، فبالتهديد وبإمكانية الحرب.

كما شُجِبَتْ مقاومةُ التشيروكيين لتوسّع المستوطنين بوصفها «وحشيّةً» Savegery؛ وهي النُّسْخَة السّابقة لِما يُسَمّى اليومَ بـ «الإرهاب». ويلاحظ ريجينالد هورسمان أنّه «في الوقت الذي كان فيه الهنودُ يقاتلون بيأسٍ للمحافظة على الأراضي التي عاشوا فيها من تعدّيات البيض، كانت أعمالُهم 'الوحشيةُ' تُستخدم لإدانتهم... لقد استُخدِمَ العنفُ الذي ولّدَه تقدُّمُ [اجتياحُ] البيض لإدانة الهُنودِ الذين كانوا قد استُفِزّوا للمقاومة». وإذ استنكرتْ هيلين هانت جاكسون استخدامَ تعبيرَ: «فظاعات الهنود» Indian atrocities في الوثائق الرسمية لنعتِ المقاومة التشيروكيّة، قالت: «إنّ قلةً قليلةً ممّن قرأوا هذه السِّجلات يخطر لهم أنّ الهنود الّذين ارتكبوا هذه الفظاعات كانوا ببساطةٍ يَطردون [أعداءَهم] بالقوة، وأنّهم كانوا ـ في النزاعات الناشئة عن هذا الطرد القسريّ ـ يقتلون الرجالَ الذين اغتَصَبوا وسَرَقوا أراضيهم. تُرى كيف كانت ستتصرف جماعةٌ من الرجال البيض، لو وُضِعتْ بالضبط في الموضع الذي كان فيه التشيروكيّون؟» بل، استكمالاً لهذا الخلط المألوف من المصطلحات، استُحسِنتْ اعتداءاتُ المستوطنين التي رافقتِ انتهاكاتِ الحدود بوصفها «رجوليّةً وبطوليّة»؛ كما أنّ المستوطنين استخدموا «لغة الدفاع عن النفس» ـ التي صاغَها مايكل پول روجن Rogin ـ «لكي يحجبوا نواياهم العدوانية».

لا معاهدة تُرضي البيض إنْ لم تعطِهم الأرض التي تعطيهم إيّاها أيُّ حربٍ ناجحةٍ يخوضونها

عشيّة «حرب الاستقلال»، حين كان المستوطنون يواصلون توسُّعهم بسرعة، تحالفتِ الأمّةُ التشيروكيّة مع البريطانيين. وهنا يُقرّ روزفلت بصراحة بأنّه «من السّهل، وبالنظر إلى الوراء، أن نرى أنّ الهنود قد كانوا الأعداءَ الطبيعيين للشعب الأميركي، والحلفاء الطبيعيين ـ بالتالي ـ

للحكومة البريطانية. وحين فزع التشيروكيون من تعدّيات البيض، امتشقوا الفؤوسَ [المعروفة بـ «النَّمْهُوك»] تحت إمرة البريطانيين». وقال أحدُ المحاربين التشيروكيين نادباً، وهو يستعدّ للانضمام إلى صفوف الملك جورج، إنّ ناسَه «لم يكونوا يمتلكون إلاّ رقعةً صغيرةً من الأرض تُركتْ لهم ليقفوا عليها، وإنّه يبدو أنّ الشعب الأبيض ينوي تدميرَهم كي لا يكونوا [أو يظلّوا] شعباً».

لقد كانت حربُ الاستقلال الأميركية، مثل «حرب الاستقلال» الإسرائيلية، حربَ غزوٍ لا ترحم. واحتوَتْ «خَصيصَةً ثنائيّةً»، على حدّ تعبير روزفلت، لأنّ الأميركيين من جهة «ربحوا بالغزو والاستعمار أراضيَ جديدةً لأبنائهم» (وهي «وادي أوهايو كاملاً، بالإضافة إلى وادي إلينويْ»)، ولأنهم «من جهة ثانية وَطّدوا استقلالهم الوطنيَّ عن الملك البريطاني». وراح المستوطنون الأميركيون يشنّون حرباً «بلا هوادة» ضد التشيروكيين، مستخدمين اندلاعَ العداوات ذريعةً. وكتب ثورمان ويلكنز: «لم يَعْتبر الرجالُ البيضُ أيَّ فعلٍ محليٍّ أكثرَ بربريّةً من أن يتبنّوْهُ، بل إنّهم طوّروا تحسيناتٍ من صنعهم هم». وبحسب موني (Mooney)، فإنّ السلطات الثورية ـ بنشرها للإعلانات [الدّاعية إلى المساعدة على القبض على «المتمرّدين» لقاء مالٍ أو نحوه] ـ قد «شجّعتْ بصورةٍ رسميةٍ العادةَ البربريّة المتمثّلةَ بسلخ جلدة الرّأس (scalping)». ويضيف موني، بما يشكّل مغزًى عميقاً، أنْ ليس ثمّة ذِكرٌ في السِّجلاّت لأيّ حادثةِ سلخ جلدِ رأسٍ قامَ بها الأميركيون بحقّ محافظين بريطانيين (Torries) أو بيضٍ آخرين، رغم كل المرارة التي أثارتْها الحربُ. (إنّ ازدواجَ المعايير العنصريّ ذاتَه أمرٌ ثابتٌ على مدار التاريخ الأميركي. ويلاحظ جون دوير Dower، حينَ النظرِ إلى الفظاعات التي اقترفتْها الولاياتُ المتحدةُ في حربها مع اليابان، «أنّ من الأمور التي لا يتصوّرها العقلُ في الواقع أن تُجْمَعَ أسنانُ قتلى الحرب الألمان أو الطليان وأذانُهم وجماجمهُم، وأن تُعْرضَ في البلاد الأنجلو ـ أميركية، دون أن يثير ذلك صَخباً وضجيجاً»). وقد استغلّ قائدُ كارولاينا الويغيُّ *، ويليام هنري درايتون، «أعمالَ العداء المتجدّدة التي قامَ بها بضعةُ شبّان» عامَ ١٧٧٦، لكي «يُصْدر تعليماتٍ بالإبادة الجماعية» للتشيروكيين. وأُعطيت الأوامرُ إلى القادة العسكريين بأنْ: «قُوموا بأعمالٍ تمليس [أو تَنْعيم] أثناء تقدُّمكم ـ أي اقطعوا كلَّ حقلِ ذُرَةٍ هنديٍّ، واحرقوا كلَّ بلدةٍ هندية»! وإذ يتذكر ضابطٌ أمرٌ هجوماً مفاجئاً فَجْرياً على قريةٍ تشيروكيّة عام ١٧٨٢، يتبجّح بأنّ القرويين فيما كانوا يحاولون الفرار:

> انطلق الجنودُ عموماً في فصائل، وطاردوا الهنود، وهم يقطّعونهم بسيوفهم. ولئن أخطأتْ ضربةٌ هدفَها، تكفّلتِ الضربةُ الثانيةُ أو الثالثةُ مِن جنودٍ آخرين بإنجاز العمل. وكان لأحدهم، واسمُهُ ويليام غرين، وهو رجلٌ شديدُ الضخامة والقوة، سيفٌ ضخمٌ يَفْلع به رؤوسَ الهنود الهاربين وكأنّها حبّاتُ قَرْعٍ كثيرةٌ فحسب. وأما الشاب زاك كلارك، الذي لا يزيد عمرُهُ عن سبعة عشرَ أو ثمانيةَ عشر عاماً... فقد تميّز بمطاردة الأعداء وقتلهم.

هذا الشاب القاتل الممتاز، زاك كلارك، أصبح لاحقاً حاكماً لجورجيا! كما كتب أحدُ الضبّاط إلى جون هانكوك، فَرَوى كيف تجمّعتْ زمَرٌ من المستوطنين ليذبحوا هنوداً حُلَفاء في الأراضي التي كان هؤلاء يصطادون فيها، وكيف أنه «لم يكن من غير الشائع أن تسمع أولئك الذين ينبغي أن يكونوا أكثر درايةً وهم يعبّرون بأنفسهم عن رغبةٍ مضطرمة في إضرام حربٍ مع الهنود، بسبب الأراضي الرائعة التي يملكها هؤلاء المساكين».

قال بن غوريون: «لا يهم ما يقولُهُ الأغيارُ، بل ما يفعله اليهودُ». وقالت مائير: «إن حدود إسرائيل هي حيث يعيش اليهود»

لقد ادّعى المستعمرون الأميركيون، إذْ راحوا يصوِّرون أنفسَهم ضحايا أبرياء مستميتين في تحقيق السلام، أنّ حربهم ضد التشيروكيين إنّما جاءت دفاعاً عن النفس. (وعلى هذا، كانت إسرائيل عام ١٩٤٨ وبعدها تستند [في تأويلها لتاريخ فلسطين الحديث] إلى نصٍّ قديم!). وتطلّع القائدُ التشيروكيُّ كورن تاسيل Tassel بحقدٍ وعداوة إلى ادّعاءات الأميركيين بالبراءة، أثناء تفاوضه مع مستوطني كارولاينا عام ١٧٧٧، قائلاً: «أنتم تريدون أرضنا فقط، لا صُنْع السلام». والحق أنّ الأميركيين ضغطوا لكي يتخلّى التشيروكيون عن أراضٍ احْتُلّتْ أثناء حرب الثورة. ولم تستطع الأمّة التشيروكية أن تستوعب لماذا يُعطي فرارُ السكّان الأصليين، من لظى المعركة، الأميركيين حقّاً شرعيّاً بالأرض: «أنا [تاسيل] لا أستطيع أن أفهم كيف لهم أن يُطالبوا بالأرض لهذا السبب؛ فنحنُ أيضاً طَرَدنا سكّاناً بيضاً من بيوتِهم». غير أنّ قوة المنطق أثبتت أنّها لا تكافئ منطقَ القوة. يلاحظ روزفلت،

---

* ـ الويغيُّ، أو الهُويغي whig: أميركيٌّ مؤيّدٌ للاستقلال عن بريطانيا أثناء الثورة الأميركية. أو هو عضوٌ في حزب أمريكي أنشئ عام ١٨٣٤ لمقاومة الحزب الديموقراطي. (المترجم)

متذكراً المفاوضاتِ مع بريطانيا، وهي المفاوضاتُ التي أنهتْ حربَ الاستقلال:

> لقد كان احتلالُنا الفعليُّ للبلادِ، وتمسُّكُنا بها، هما الأمرين اللذين أعطيا دبلوماسيِّينا موقعَ الأفضلية [في المفاوضات]. إنّ سلام ١٧٨٣، بقدرِ ما أثّر على حدودنا الغربية، لا يعدو أن كَفَلَ لنا ملكيةً للأراضي لا يقضُّ مَضْجعَها أحدٌ؛ وهي أراضٍ ثَبتَ من المستحيل طردنا منها... لقد حصّلنا على ما حَصّلنا عليه لأننا كسبناه ولأنّنا تمسكنا به فقط.

إنّ استراتيجيّة روزفلت، التي كان للصهاينة فيما بعدُ أن يَدْعوها «بناءَ حقائق» building facts، لم يُعرقِلْها الإغراقُ النيِّقُ في التمحيص بالأمور القانونيّة. يقول روزفلت: «ليس هناك، على الإطلاق، معاهداتٌ يُمكن اعتبارُها مُلْزِمَةً إلى الأبد؛... فقد تنشأ ظروفٌ تجعل من المفيد، بل من الحتميّ والمشرِّفِ، أن نُبْطِلَها». وتلخّصُ النسخة الصهيونية من هذه المشاعر في تحذير بن غوريون الشهير: «لا يهمّ ما يقولُهُ الأغيارُ [غيرُ اليهود]، بل المهمّ ما يفعله اليهود»؛ أو كما عبَّرتْ غولدا مائير بقولها: «إنّ حدود إسرائيل هي حيث يعيش اليهودُ، لا حيث يوجد خطٌّ على الخارطة».

كانت المعاهدةُ الأولى الموقَّعةُ بين التشيروكيين والحكومة الجديدة للولايات المتحدة في هوپْوَلْ HopeWell في كارولاينا الجنوبية (١٧٧٥) قد أجبرتِ الهنودَ على التخلّي من جديدٍ عن أراضٍ واسعة. ورغم أنّ المعاهدة بشَّرَتْ بأنّ «البَلْطة سوف تُدفن إلى الأبد بين الولايات المتحدة والتشيروكيين»*، فإنّها [في الواقع] استحثَّتِ المستوْطِنين على القيام باعتداءاتٍ جديدةٍ على مناطق التشيروكيين. وعلى الرغم من شجب وزير الحرب هنري نوكس Knox لـ «الانتهاكات المُشينة التي تعرّضتْ لها معاهدةُ هوپْوَلْ»، فقد طالبتْ حكومةُ الولايات المتحدة في معاهدة هولستون التشيروكيين بتخلّياتٍ جديدة (١٧٩١؛ «يُعلَن سلامٌ دائمٌ بين الولايات المتحدة والأُمَّةِ التشيروكيّة... وتَضْمن الولاياتُ المتحدةُ بجدِّيةٍ للتشيروكيين كُلَّ أراضيهم **التي لم يُتَخَلَّ عنها** في هذا النصّ»). ونقرأ أيضاً في معاهدة تيليكو Tellico ما يلي: (١٧٩٨؛ «[ههنا] يُجَدَّدُ السَّلامُ والصداقةُ، ويُعْلَنَان دائمَيْن... وتبقى الحدودُ التشيروكيّة على ما هي عليه، **ما عدا ما حَدَثَ تغييرهُ في هذه المعاهدة**. ويتخلّى التشيروكيون عن...»)!. وبين عامي ١٧٨٥ و ١٨٣٥ وقَّعتْ حكومةُ الولايات المتحدة والأمَّةُ التشيروكية ستَّ عشرة معاهدةً كاملةً مماثلةً «دائمةً» من «السَّلام والصداقة» «تَضْمن بجدِّيةٍ الأراضي التي لم يُتَخَلَّ عنها في هذا النصّ»[!].

وإذ استوعبتِ الأمَّةُ التشيروكيّةُ أعرافَ «الحضارة» وأَشْراكَها بسرعةٍ، فقد تطوّرت مع حلول عام ١٨٣٠ إلى مجتمعٍ يَغْلب عليه الطَّابَعُ الزراعيُّ ويمتلكُ بنيةً دستوريةً أَحالَتْهُ إلى «صورةٍ مرآويةٍ عن الجمهورية الأميركية». وقد لاحظ مُشْرِفُ الولايات المتحدة على التجارة الهندية «أنّ التشيروكيين متقدِّمون على كل القبائل الأخرى، ويمكن اعتبارُهم شعباً متحضِّراً». وحين ألقى جون س. كالهون Calhoun خطاباً أمام مجلس الوزراء ذَكَّر أنّ كلّ التشيروكيين «مزارعون، وأنّ لهم حكومةً تمثيليةً، ومحاكمَ قضائيةً، ومدارسَ راقيةً، ومِلْكيّةً دائمة». غير أنّ كالهون يوضح أنّ «تقدّم التشيروكيين في الحضارة»، بعيداً عن أن يكون نعمةً، قد «كان بلاءً عظيماً»؛ ذلك لأنّهم ـ بإعارَتِهم نداء «تحضير أنفسهم» آذاناً صاغيةً ـ قد أصبحوا أيضاً (كما كان يُعتَقد) «شديدي الارتباط بالأرض». لكنّ الولايات المتحدة لم تكن عازمةً على استيعابهم، بل على طردهم. ومن الواضح أنّ الأمة التشيروكيّة قد تعاملتْ مع العقاقير الأميركية الرسميّة بحَرْفيَّةٍ شديدة؛ وقد خَطب سيناتور «رود آيلاند» ـ أثناء نقاش أعضاء الكونغرس بشأن ترحيل التشيروكيين ـ قائلاً: «يا أيّها الهنودُ السيِّئو الطالع! إنّ البربرية ومحاولات التحضّر سيَّان عندكم؛ فكلا الأمريْن مُهْلِكٌ لحقوقكم؛ ولكنّ محاولة التحضُّر هي الأكثرُ إهلاكاً».

«لقد دُعينا بالشعب المسكين الجاهل المنحطّ، ولكن ليس بيننا من يجهل أنّ له حقاً في أن يعيش على أرض آبائه»

لقد تصوَّرتْ كلُّ إدارات الولايات المتحدة (بدءاً من جيفرسون)، وتصوَّر كلُّ قادةِ المعارضة الرئيسيين، أنّ نقل التشيروكيين إلى غرب نَهْرِ الميسيسيپّي هو «الوسيلةُ الرئيسيّةُ» (وهنا نستعيد صياغةَ [المؤرِّخ الإسرائيلي] «بَني موريس» للمسألة في السياق الفلسطيني) لحلّ المسألة التشيروكيّة. وطمعتِ الولاياتُ الجنوبيةُ بالمناطق الهائلة ذاتِ التّربةِ السطحيةِ القيِّمة، والخشبِ البِكْر [الخام]، والاحتياطات المعدنيّة (وكان الذهب قد اكتُشف في نهاية العشرينات من القرن الثامن عشر) في المناطق التشيروكيّة. ولكنّ التشيروكيين تعهّدوا علناً بأنهم سيقفون صامدين في

* ـ «دَفْنُ البَلْطَة»: كناية عن دفن الأحقادِ. (المترجم)

وجه أيّ تعديات جديدة. وتعلّق «هيلين هانت جاكسون» في هذا الصدد: «لقد تقرّر مصيرُ التشيروكيين في اليوم الذي أعلنوا فيه ـ مرةً وإلى الأبد، وبصورةٍ رسميّةٍ بوصفهم أمّةً ـ أنهم لن يبيعوا قَدَماً مربّعة أخرى من أرضِهم». ثُمّ أقرّ الكونغرس سلسلةً من الإجراءات لتسهيل عملية ترحيل التشيروكيين. وتُوِّجتْ هذه التشريعاتُ القانونيةُ بـ «مرسوم الترحيل الهندي» (Indian Removal Act) عامَ ١٨٣٠، وهو مرسومٌ صيغَ بلغةٍ جَعَلَتْه يبدو وكأنّه صادرٌ عن إرادة، ولكنه كان «مفهوماً جداً» أنه يعني أنْ ليس للتشيروكيين «أيُّ خيار». وعلاوةً على ذلك، كان الإبعادُ شاملاً؛ فلم تكن أراضي التشيروكيين المستخدمة في الزراعة هي وحدَها المدرجةَ على قائمة الترحيل، بل كان إلى جانبها أيضاً تلك القطعُ الأرضيةُ القليلةُ المملوكةُ ملْكيةً خاصةً. وأما عروض القادة التشيروكيين الأخيرة ـ وكانت بمثابة خندقِ دفاعهم الأخير ـ فقد وقعتْ على آذانٍ صمّاء؛ وكانت تقضي بحلّ الأمّة التشيروكية وانضمام أفرادِها إلى الاتحاد* مواطنين فرادى وملاّكاً صغاراً للأراضي، الأمر الذي يفسح المجال أمامهم لبيع أراضٍ ضخمة. وقد شدّد وزيرُ الحرب جايمس باربور Barbour ـ معيداً إلى الأذهان أنّ التشيروكيين كانوا قد نُصِحوا بأن «يتصرّفوا كما يتصرّف البيضُ» من أجل مستقبلٍ آمن ـ على نفاق الجهود الجارية لترحيلهم: «إنهم يرون أنّ إقرارتنا منافقة، وأنّ وعودنا قد نُكِثتْ، وأنّ سعادة الهنود هي تضحيةٌ رخيصة من أجل امتلاك أراضٍ جديدة».

العلاقات المتواطئة بين حكومة «إسرائيل» والمستوطنين مماثلة للعلاقات بين الحكومة الأميركية وسكّان الحدود البيض

لقد لاحظ دو توكفيل de Tocqueville أن الولايات الجنوبيّة سنّتْ ـ طبقاً لمبدإ «طرد التشيروكيين طرداً كاملاً» ـ إجراءاتٍ «مستبِدّةً»، وأصدرتْ مراسيمَ «اعتباطيةً». وكان الهدفَ ـ كما هي الحال مع حكم إسرائيل القمعيّ لفلسطينيّي الضفّة الغربية وغزّة ـ «دفعُهم إلى مرحلة اليأس وإجبارُهُم على الرحيل». وقد أفْصَح ببلاغةٍ عن الاستراتيجية الأساسية «أندرُو جاكسون»، الذي سعى إلى طرد التشيروكيين بترخيصٍ قانونيّ حين قال: «عليكم أن تُزيلوهم بواسطة التشريع. اتّخِذوا على بلادهم ولايةً قضائية؛ وأشعِلوا الحرائقَ من حولهم، وافعلوا بشكلٍ غير مباشرٍ ما لا تستطيعون فعله بشكلٍ مباشر».

ومع توسيع قانون جورجيا ليشمل أراضي القبائل، تُرِكَ التشيروكيون ـ وبكلمات أحد المتعاطفين معهم من أعضاء الكونغرس ـ «تحت رحمةِ مُثيري الشَّغَب وخنجرِ كلِّ وَغْدٍ مجرّدٍ من المبادئ في [هذا] المجتمع». وقد وَضَعَ المستوطنون البيضُ «يَدَهم على أراضي الهنود ومواشيهم وتحسيناتهم، وأجبروهم على توقيع عقودِ بيع، وساقوهم إلى الغابات، وحازوا منجماً من الثراء في أرضٍ خالية. وكان المحتجّون من الهنود يُهَدَّدون أو يُجْلَدون». ويقرّر دو توكفيل أنّ «السكّان الأصليين قد كانوا بشكلٍ يوميّ ضحايا لسوء استخدام القوة». ونَعَى أحدُ المعاصرين الآخرين أنّ التشيروكيين «أُرهِبوا وروِّعوا واستُؤسِدَ عليهم وأُشعروا أنهم لا يملكون حمايةً كافية من الولايات المتحدة وأنْ لا قدرة لهم على حماية أنفسهم». وكتب جرانت فورمان Foreman في تقريره الذي يحظى بالقبولِ العام «أنّ الاضطهاد كان يطبِّق دون رحمة من أجل تحطيم أرواح التشيروكيين الذين رفضوا مغادرة بيوتهم». بل إنّ ولاية جورجيا ادّعتْ أنّ لها حقّاً شرعياً مقصوراً عليها وحدها في استثمار المصادر المعدنية التي لا تقدَّر بثمن والموجودةِ في أراضي التشيروكيين ـ وبالتحديد: استثمار رواسبِ الذهب المكتَشَفة حديثاً. والحال أنّ حقوق تطوير مصادر المياه التي لا تقدَّر بثمن في المناطق الفلسطينية المحتلة قد مُنِحَتْ هي الأخرى ـ وبتحكيم للحقوق مشابهٍ [للتحكيم السابق] ـ للإسرائيليين حصراً.

وبكلمات غنيّةٍ بالترجيع المعاصر، شَجَبتِ الأمةُ التشيروكيّةُ والبيضُ المتعاطفون معها أيضاً حملةَ ترحيل التشيروكيين شجباً علنياً. وردّ التشيروكيون على الإنذار النهائي الذي وجّهَه وزيرُ الحرب جون كالهون إليهم بوجوب التخلّي عن السيادة على جورجيا أو الرّحيل بالقول: «نستأذنكم بالحديث، ونذكّرهم بأنّ التشيروكيين ليسوا أجانبَ بل سكّانٌ أصليّون من سكّان الولايات المتحدة، وبأنّ الولايات التي تحيطُ بهم الآن قد خُلِقتْ مِن أراضٍ كانت لَهم [أي للتشيروكيين] في السّابق». وتساءلوا في عريضةٍ رفعوها إلى الكونغرس: «أيُّ حقٍّ يُمْكِن أمّةً أن تمتلكه في أرضٍ مّا، أفضَل من حقّها [الذي حازته] في أن ترث هذه الأرضَ وأن تكون ملْكاً لها منذ الأزمنة السحيقة؟... ما هي الجريمة التي ارتكبناها، والتي يمكن أن تحرمنا وطننا؟». كما تتساءل «مذكّرةٌ» تشيروكيّةٌ، بعد أن تُذكّر «بأنّنا لم ننتهك سلطةَ أحدٍ، ولا حَرَمنا أحداً امتيازاتِه غيرَ القابلة للتحويل»: «كيف لنا، إذن، أن نعترف مباشرةً بحقّ شعبٍ آخر في

* ـ المقصود: الاتحاد الفدرالي للولايات الأميركية أثناء الحرب الأهلية. (المترجم)

أرضنا، فنغادرها إلى الأبد؟». وتضيف المذكّرة: «لقد دُعِينا بالشعب المسكين والجاهل والمُنْحَطّ، ولكنْ ليس هناك رجلٌ ضمن حدودنا [الجغرافية] من الجهل بحيث لا يعرف أنّ له حقاً في أن يعيش على أرض آبائه».

وتعيد «مذكّرةٌ» أخرى إلى الأذهان «الإهاناتِ، والسجنَ، والاضطهادَ، بل والموتَ» التي عانى منها التشيروكيون على يد الجورجيين؛ «ومع هذا فإنّ التشيروكيين لم يرتكبوا أيّ اعتداءٍ على الإطلاق، إلاّ ما جاء بدافع السعي إلى التمتّع بما يملكونه، ورفضِ التخلّي عنه إلى مَنْ لا يملك حقّاً فيه». وحثّ أحدُ البيض المتعاطفين مع التشيروكيين «شعبَ جورجيا، وشعبَ الولايات المتحدة، على تأمُّلِ ما إذا كانوا هم مستعدين لتلقّي المعاملة التي يُهدِّدُ بها الشعبُ التشيروكيُّ، وما إذا كانوا سيرضَوْن بالنفي [إلى خارج بلادهم]؟». أو كما عبّر عن ذلك التشيروكيون ـ وبصورة متكلِّفة ـ في مذكّرتهم الثانية حين قالوا: «إننا نتضرّعُ إلى أولئك الذين وجّهنا إليهم المقاطعَ السابقةَ، بأن يتذكروا قانونَ الحياةِ العظيمَ: أنِ اعملوا للآخرين ما تحبون أن يعملوهُ هم لكم». وقد تنبّه المراقبون غير الأميركيين بصورة خاصة إلى «ورع» الحضارة الأميركية المنافِق؛ فهي تُطْرِي [بإسراف] أصولَها الديموقراطيةَ فيما هي تدوس بقسوةٍ على رقاب السكّان الأصليين. ويقول الرحّالة الإنجليزيُّ فرانسيس ترولوپ، مشيراً إلى «سياسة» ترحيل الهنود «الغادرة» بوصفها سياسةً تَكْشف عن الطبيعة الحقيقية لأميركا: «إنّك لَتَراهم ساعةً يحاضرون أمام جماهيرهم عن حقوق الإنسان غيرِ القابلة للإلغاء، ثم تراهم في ساعةٍ تالية يسوقون أبناءَ الأرض خارج بيوتهم»!

لقد بلغتْ عمليةُ ترحيل التشيروكيين أوجَها أثناء إدارة أندرو جاكسون*. ولفّع جاكسون فِعلَ الغزو بضبابٍ كثيف ـ وإنْ يكن ضباباً مألوفاً ـ من الإيديولوجيا التي تبرِّئُ الذات. فقد زعم أنّ من «الحقائق الثابتة البادية الآن» أنّ التشيروكيين «لا يمكنهم أن يعيشوا على تماسٍّ مع مجتمعٍ متحضّر وأن يزدهروا». وإلى أن يتمكّن التشيروكيون من إتقان فنون الحضارة، فإنّ «واجب» حكومة الولايات المتحدة «الأخلاقي» هو أن تُنجز عمليةَ ترحيلهم؛ وهذه هي الوسيلة الوحيدة «لحماية [التشيروكيين]... وَصَوْنِهِمْ وحِفْظِهِم من الزوال». ولكنّ المجتمع التشيروكي كان قد امتُدِحَ قبل ذلك بسنوات قليلة فحسبُ بوصفه «صورةً مرآويةً عن الجمهوريّة الأميركية»! والحقّ أنّ التشيروكيين إنّما «دُفعوا إلى الرحيل»، على نحوِ ما يلاحظ عالمٌ إنجليزيٌّ زائرٌ، «لا لعجزهم عن التحضّر، بل لأنّ مجموعةً زائفةً من الكائنات المتحضرة ـ التي كانت أقوى منهم كثيراً ـ تريد الحصولَ على أملاكهم».

وأكّد جاكسون، في نقاشٍ متّصل بهذا الموضوع، أنّ الحكومة القومية كانت عاجزةً عن صدّ تعدّيات المستوطنين، وأنّ ترحيل التشيروكيين كان ضرورياً اتّقاءً لأيّ عنفٍ حدوديّ. ولكنْ لئن نشأتْ نزاعاتٌ حقاً في السنوات الأولى من عمر الجمهورية بين الحكومة القومية والمستوطنين، فإنّ التوترات ـ حتى في ذلك الحين ـ كانت في الغالب ظاهريةً أكثر ممّا هي حقيقية، إذ كانت شجاراً على **الوسائل** لا على **النتائج**. وهكذا لم يكن لدى الموظّفين الفدراليين، وفقاً لما قاله برنارد شيهان Sheehan، «أيُّ وخزِ ضميرٍ حيال السيطرة على أراضي الهنود في نهاية المطاف، ولكنهم لم يفقهوا كيف يكون بمقدور احتلالٍ نظاميّ للقارة أن يتقدّم إنْ هو أَسْلَمَ زمامَ السياسة القومية لمبادرات سكّان الحدود». وفي النهاية كان بإمكان المستوطنين الاعتمادُ الدائمُ على دعم الحكومة! ومع أنّ روزفلت كان ناقداً قاسياً لسلبيّة الحكومة الفدرالية [إزاء المستوطنين]، فقد أقرّ:

من مصادر القرابة بين مستوطني الحدود الأميركيين والمستوطنين اليهود تَنْشئتُهم على عقيدة تُعلي من شأن العهد القديم

> بأنّ الأمّة قد يعوزها الحماسُ أوّل الأمر، وربّما امتلأتْ في أن تمنع المستوطنين من التعدّي على أراضي الهنود أو من الدخول في حربٍ معهم. ولكنْ حين كانت الحربُ تصبح أمراً واقعاً، والنصرُ مشكوكاً في إحرازه، كانت القوةُ الحكوميةُ تُستخدم بالتأكيد لتأييد المازومين [المستوطنين]... طليعةِ الشعبِ الأميركي في القفار.

وكانت الأعذارُ التي تقدِّمها الحكومةُ الفدراليةُ إلى ضحايا انتهاكات المستوطنين غيرَ ذاتِ معنى. حتى تساءَل التشيروكيّون: «هل الكونغرس الذي انتصر على ملك بريطانيا العظمى عاجزاً عن ترحيل أولئك المستوطنين»؟ وعلى أيّ حالٍ، فما إن شَغَلَ جاكسون منصبَه حتى عملت الحكومةُ الفيدراليةُ مع سكّان الحدود يداً بيد. وأورد روجن Rogin أنّ «إلحاح جاكسون على الطبيعة العفوية والشعبية لتوسّع البيض» يهدف إلى «حجب الدور الرئيسيّ الذي أدّتْهُ قراراتُ السياسة الحكومية». لقد كان جاكسون، عملياً، «يستخدم المعتدين المنتهِكين... من أجل إجبار القبائل [التشيروكيّة]

---

* ـ وهو الرئيس السابع للولايات المتحدة، وحَكَمَ بين ١٨٢٩ و ١٨٣٧. (المترجم)

على التخلّي عن أراضيهم». واستنتج دو توكفيل أنّ الحكومة القومية، وإنْ أظهرتْ «عنفاً وطمعاً أقلّ» من عنف سكّان الحدود وطمعهم، إلاّ أنها كانت «تُعادلهم في الافتقار إلى النية الحسنة». لقد تباين أسلوبا الطرفين التكتيكيان، لكنّهما كانا «وسيلة للنتيجة ذاتها». وبمقدور المرء أن يتبيّن نموذجاً مماثلاً لهذا في العلاقات بين حكومة إسرائيل (سواء أكانت ليكودية أم عمّالية) والمستوطنين اليهود في المناطق المحتلة [بعد عام ١٩٦٧]، وهي علاقاتُ تواطؤٍ في نهاية المطاف (رغم تظاهر الطرفين بغير ذلك) وإنْ شابها في فتراتٍ متقطعة بعضُ التعارض.

ولكنْ لئن عملتْ «طليعةُ القِفار» [أي سكّان الحدود المستوطنون] و«القوةُ [الحكوميةُ] القوميةُ» للهدف ذاته، وهو طردُ التشيروكيين، فإنهما لم تَصْدرا دائماً عن الدوافع ذاتها. ذلك لأنّ «طليعةَ القفار» كثيراً ما تكشّفوا عن عقلية مَرَضيّة، لكونهم هم الذين تحمّلوا العبءَ الأعظم الناتجَ عن مقاومة السكّان الأصليين للتوسيع الاستيطاني المتواصل للحدود. وقد أثار الصمودُ العنيدُ للجانب الأوّل نوباتٍ حقيقيةً من الاشمئزاز والكراهيةِ لدى الجانب الآخر. ولاحظ «باندهاش» مَنْ سيصبح في المستقبل حاكماً للمنطقة الشمالية الغربية، أنّ المستوطنين «كانوا مدفوعين بأكثر أنواع القسوة وحشيةً، ويرتكبون باستهتارٍ جرائمَ هي عارٌ على الإنسانية». وعَبّر ويليام هنري هاريسون ـ وهو ليس بغريبٍ عن الحرب والعنف ـ عن يأسه لكون كثيرٍ من سكّان الحدود «يَضعون قتل الهنود في أعلى مراتب التشريف والتقدير». وذكر مراقبٌ إنكليزيّ أنّ المستوطنين يكنّون «أشدّ أنواع الكراهية حقداً على عِرْق الهنود بكامله، وليس أشيعَ مِنْ أن تسمعهم يتحدثون عن [ضرورة] استئصالهم من وجهِ الأرض، رجالاً ونساءً وأطفالاً». ورغم أن روزفلت لم يألُ جهداً في تَخفيف الأحقادِ البربرية التي استحثّتِ المستوطنين وفي تخفيف الأعمالِ البربريةِ التي ارتكبوها، فقد أقرّ بأنّ هؤلاء «يعتبرون أعداءهم وحوشاً لا بشراً»، وأنهم «انحدروا بسرعة إلى ما يقارب الدَّرَكَ الذي بلغه أعداؤهم البرابرةُ من حيث وحشيّتُهم الفظيعة»، وأنّهم «بشقّ النفس اعتبروا الهنديّ كائناً بشريّاً» و«وصل بهم الأمر إلى أن يعتبروا حتى أكثرَ الهنود مسالمةً وحوشاً بريّةً نائمةً وحسب»، و«نظروا إلى جميع الهنود بعداءٍ مقيت، ولم يكن من الممكن إقناعُهم بأن يميّزوا الأخيار من الأشرار»، و«احتقروا جميعَ الرجال الّذين ليسوا من لونهم»، وهلمّجرّاً. كذلك الأمر، فإنّ مذبحة الخليل في شباط (فبراير) ١٩٩٤ ـ وفيها أطلق مستوطنٌ يهوديٌّ النار على عشرات الفلسطينيين المصلّين في أحد المساجد ـ وما رافق ذلك من «ابتهاج واحتفال» في المستوطنات اليهودية، يشهدان على أنّ الكراهية العِرقيّة تستحثُّ الغزو ويستحثُّها الغزوُ. وحين ضغط أحدُ الصحفيين على الحاخام موشيه ليفنغر Levinger، «أبي الحركةِ الاستيطانية»، كي يعبّر عن أسفه على جريمة المسجد، أجاب ليفنغر «بجديّة تامة»: «أنا آسفُ على كلّ شيءٍ يُقتَل. أنا لستُ آسفاً على العرب القتلى وحدهم، بل أنا آسفٌ أيضاً على الذُّباب المقتول»[!].

إذا كانت «الوطنية» هي الملجأ الأخير للأنذال، فإنّ «الأمن القومي» هو الملجأ الأخير للدّول النذلة

بإمكاننا أن نحدّد القرابةَ الإيديولوجيةَ بين مستوطني الضفة الغربية ومستوطني الغرب الأميركي بقوةٍ أكبر. فقد كتب روزفلت، متذكّراً المعينَ اللاهوتيَّ (الذي لا ينضب)، ومنه نبعتْ رؤيةُ مستوطني الحدود إلى العالم، ما يلي:

> لقد كان عددٌ كبيرٌ من أفضل رجال الغابات [أي مستوطني الحدود الأميركية] من قارئي الكتاب المقدّس [الإنجيل]، ولكنهم كانوا قد نُشّئوا على عقيدةٍ تُعلّي من شأن العهد القديم [التوراة] ولا تركّزُ إلا قليلاً على الرّأفة أو الحقيقة أو الرحمةِ. ولهذا نظروا إلى أعدائهم كما نَظَر الأنبياءُ العبرانيون إلى أعداء إسرائيل. فما تُراها كانت الأمورُ البغيضةُ التي دُمِّر الكنعانيون بسببها أمام يوشع، إنْ هي قورنتْ بالأمور البغيضةِ التي اقترفها المتوحّشون [الهنودُ] الحُمْرُ الذين على المستوطنين ـ بوصفهم شعباً مختاراً آخرَ ـ أن يرثوا أرضهم [أي أرضَ الهنود] بدورهم؟ لقد آمنوا [أي المستوطنون] بأنّ الرب هو الملك إلى أبد الآبدين، وآمنوا بأنهم كانوا لا يَعْدُون أن يطيعوا أوامرَ الرّب حين كانوا يبذلون قُصارى جهدهم لإحداثِ اليوم الذي يَفْنى فيه الكُفّارُ من الأرض... وكان هناك كثيرٌ من المتحمّسين الصارمين الكالحين الذين اعتبروا كلّ الرجال الحمر، سواء أكانوا أخياراً أم أشراراً، ذُرّةً أينعتْ رؤوسُها فحان قِطافُها.

ولعلّه من المفيد، لعَقْد المقارنة أيضاً، القول إنّ المستوطنات الحدودية، بحسب روزفلت، قد مالت إلى أن تَجْذب أفسد أصناف البشر: «وهم تلك الطبقة التي تَلْقاها دوماً معلّقةً عند أطراف الحضارة»، «رجالٌ ذوو روح متوحشةٍ لا تعرف القانون، من الّذين تجدهم في كل مجتمع، ويندفعون كالقطعانِ إلى حيث يكون حكمُ القانون رخواً

مُـهَلْهـلاً... لكي يتّـبـعـوا جنوحَ أهوائهم دونَ رقـيب»؛ «إنهم مجرمون عتاةٌ غالباً ما كانوا مجرد وحوش كاسرة». والواقع أنّ موظّفي الولايات المتحدة الرسـميين قد عدّوا مسـتوطني الحـدود بشكل عـام «نوعيـةً أدنى من الناس»، وهو شـعـورٌ يرجِّع صـداهُ كـثـيـرٌ من الإسـرائيليين حين ينظرون إلى المستوطنين اليهود.

ولقد اسْتَـحْضر جاكسون خليطاً من خرافات الغزو التقليدية ـ إلى جانب [خرافتَيْ] تخلّف التشيروكيين وعجز الحكومة الفدرالية [عن صدّ المستوطنين] ـ من أجل تبرير طرد التـشـيـروكـيين، وقـال إنّ هؤلاء لا يمكن «السـمـاحُ لهم بالبـقـاء في أراضٍ واسـعـةٍ من بلادٍ لم يَسْكنوها فلم يُحَسِّنوا فـيـهـا، لمجـرَّد أنّهم أشـرفـوا عليـهـا من الجـبـال أو عَـبَـروا بهـا أثناء الصـيـد»! وبالتعبيرات الصـهيونية، فبقدر ما كان السكّانُ العربُ الأصليون «بدائيّين» رُحّلاً، فـــإنّهم لا يَمْلِكون أيَّ حقٍ شـــرعيٍّ في الأرض. وتوقّع جاكسون أن يُخَلِّف ترحيلُ التشيروكيين جمهوراً كثيفاً ومتحضّراً في مناطق واسـعـةٍ من البـلادِ يَحْـتلّهـا الآن بضعُ صـيـادين مـتـوحشين؛ وفي المجاز الصـهـيـوني سـيـسـمح هذا التـرحـيل «للصحراء بأن تُزهر». إنّ التشـيروكيين، كـ «الإرهـابيين العـرب» في الأيديولوجـيـا الصهيونية، قد ضيَّعوا فعلياً حقوقَهم السياسيَّة بسبب ذنْبهم المتمثِّل في «قتل النساء والأطفال»: «إنهم عاجزون» ـ بحسب تأكيد جاكسون ـ «عن حكم انفسـهم بأنفسـهم وفـقـاً لأيّ قـانونٍ من قـوانين الحق التي تُلقِّنها الحضارة». ويجاهر جاكسون بأنّ الترحيل (removal)، «بضـمـانِهِ حقَّ التشيروكيين في العيش بحسب قوانينهم الخاصة»، سوف يحافظ على السلامة الثقافية للأمّة التشيروكيّة. كذلك تزعم الصـهيونيـة أنّ «ترحيل السكّان العـــرب» (transfer) يركّز تنميةَ حيـاة الجماعة القومية [المرحَّلة]، فلا يكون «مختلاً من الناحية الأخلاقية»، بل يحقّق «رؤيةً إنسـانيـةً نبـيلةً». ويزعم جـاكـسـون أنّ التـرحـيل لا يتعارض مع مصالح التشيروكيين العاديين، بل مع مصـالح قادة القبـائل الفاسدين وحدهم، الذين خَدَعوا «الجـمـاهير» وأرعبوهـا: «لو تُرك الهنودُ ـ وأعني الـهنودَ الحـقيـقـيين، أبناءَ الغـابات ـ ليقرِّروا بأنفسـهم، لأخذوا أحراراً بهذا القرار» ـ قرارِ الرَّحيل[!]. وعلى المقلب الآخر، لم يكن رأسَ الحربة في معارضـة الاستيطان اليهوديّ، بحسب الخطاب الصـهـيوني الرسمي، «فلاّحو الأرض» أو «جماهيرُ العمال العرب» (الذين هم، وفقاً للزّعم الصـهيونيّ، «حلفاء طبيعيون»)، بل «الأفندية العربُ الماكرون». وفي النهاية، بقدر ما كان طردُ التشيروكيين «داعماً للحدود الجنوبيّة الغربية وللولايات المجاورة بما يكفي لصدّ الاجتياحـات في المستقبل»، كان حيوياً أيضـاً لـ«الأمن القومي» الأميركي على نحو ما يصرّ جاكسون... تماماً كما كـان طردُ الفلسطينيين أمـراً حـيـويـاً لـ«الأمن القـومـي» الإسـرائيلي. وهكذا فـإذا كانت «الوطنيةُ هي الملجأ الأخـير للأنذال» ـ بحسب عبارة صاموئيل جونسون الذكية الساخرة التي تَعْلَق بالذاكرة ـ فإنّ «الأمن» هو الملجأ الأخير للدّول النَّذْلة.

وقّعتْ حفنةٌ من قيادة الأمّة على الاتفاقية مع المستوطنين، فاندلع صراعٌ دمويّ يَقْرب من الحرب الأهليّة الداخليّة

لقد آتتْ حملةُ جاكسون، الحسنةُ التخطيط، من التهويل والهـجـوم أُكُلهـا في النهـاية. فـانكسـرتْ شوكةُ المقاومة التشيروكيّة. بل إنّ ما تبع ذلك استَـبَقَ الطريقَ إلى أُوسلو حـتى في أدقّ التفاصيل. ذلك أنّ عصـبةً رئيسية من قيادة التشيروكيين (ولم يكن جون روس، زعـيـمُ القـبـيـلة، بينهم) اسـتـسـلمتْ لجـاكـسـون. وعلى الرغم من أنّ «أنصـار المعاهدة» ادّعـوا أنه لم يكن ثمة بديلٌ لهـا (قائلين «إنّ ضرورةً حديديّةً لا تنثني تدلّنا على وجوب المغادرة... وأنْ ليس هناك إلاّ طريقٌ واحدٌ للأمـان، طريقٌ واحدٌ لبقـائنا في المستقبل أمّةً [واحدةً]»، فإنّه يبدو أنّهم كـانوا يعـملون بدافـع من طمـوحـاتهم الشـخـصـيـة. وعلى أيّة حـالٍ فـقـد تقـرّر ترحيلُ التشيروكيين نهائياً عام ١٨٣٥ حين وقّع «أنصـارُ المعاهدة» اتفاقيةَ «نيو ايكوتا» (New Echota) التي تعهّدتْ من جـديدٍ بأنّ «الأرض المكفـولة هَهُنا للتـشـيـروكـيين لن تَخْضع للأحكام القضـائية الخاصـة بأيّ ولايةٍ أو منطقة» وأنّ «السـلام الدائم سـوف يُكَرِّسُ بين الولايات المتـحـدة والتشيروكيين». والحقّ أنّ قلّةً من التشيروكيين صـادقتْ على الاتفاقية، دعْ عنك أنّ قلّة منهم دَعَمَتْها. وكتب الضابطُ العسكريُّ الأميركيُّ المكلّفُ بتطبيق إجراءات الطَّرد، إلى وزير الحرب محتجّاً:

> إنّ تلك الورقة... المسمّاة «معاهدةً» ليست بمعاهدةٍ على الإطلاق، لأنّ غالبية التشيروكيين لم يُصادِقوا عليها، ولأنّها عُقِدتْ دون مشاركتهم ورضـــاهـم... وانا الآن أُحــذِّركَ واحــذِّر الرئيسَ من أنّه إذا تمّت المصادقةُ على هذه الورقة... المسمّاةِ «معاهدةً»...، فإنكما ستجلبان المشاكل للحكومة وستدمِّران الأمّة التشيروكيّة في نهاية المطاف. إنّ التشيروكيين شعبٌ مسالمٌ غيرُ مؤذٍ، لكنّكما قد تدفعانهم إلى اليأس، ولن يكون بالإمكان تنفيذُ هذه المعاهدة إلاّ بالقوة.

لقد كانت السّماتُ المرهَفَة للديموقراطية بالنسبة إلى حكومة الولايات المتحدة (وإلى المتعاونين معها من التشيروكيين) أمراً غير ذي بال*. ورأى حاكمُ جورجيا أنّ «تسعة عشر تشيروكياً من أصل عشرين هم من الجهل والانحطاط بحيث يجب ألاّ يُعارَ رأيهم أيُّ وزنٍ أو اعتبارٍ في أمورٍ كهذه». وعلى أثر اتفاقية «نيو ايكوتا»، شَرَعَ التشيروكيون في حملة مقاومةٍ لاعنفيّةٍ. ولكنّ «أنصار المعاهدة» واصلوا التغنّي بالاتفاقية المذكورة، وتواطأوا مع حكومة الولايات المتحدة على سحق المعارضة التشيروكية. واندلع صراعٌ دمويٌ شَمَل «جرائمَ قتلٍ، واغتيالاتٍ، وأعمالاً أخرى خارجةً عن القانون، أدّتْ جميعُها إلى ما يَقْرب من الحرب الأهلية».

ومع صمود التشيروكيين كلهم، باستثناء حفنةٍ منهم، كان على جيش الولايات المتحدة أن يتدخل عام ١٩٣٨ لإنهاء المهمّة. ولعلّ المأساة التي تكشّفتْ تدريجياً ـ وعنوانُها «دربُ الدموع» (Trail of Tears) ـ «قد تتجاوز من حيث ثِقَلُ الأسى والشّجَن أيَّ فصلٍ آخر من التاريخ الأميركي»، على نحو ما كتَبَ مُبَشّرٌ موريفيٌّ. ويتابع هذا الأخيرُ قائلاً: «إنّه لمن المفجع أن ترى مدى تمنُّع هؤلاء النّاس عن الرحيل؛ حتى ذوو أقسى القلوبَ ذابوا دمعاً حين أداروا وجوهَهم للشمس الغاربة. وأنا متأكد أنّ هذه الأرض ستكون مُخْضَلّةً بدموع أمّةٍ، إنْ لم تكن مُخْضَلّةً بدمائها». ويتذكّر متطوّعٌ جورجيٌّ كان قد خدم مع اتحاد الولايات** فيقول: «لقد قاتلتُ خلال الحرب الأهلية، وشاهدتُ رجالاً يُصابون بالرصاص ويتقطّعون أوصالاً ويُذْبَحون بالآلاف. ولكنّ ترحيل التشيروكيين هو أوحشُ عملٍ عرفته في حياتي».

وبعد قرنٍ من الزمان، سيقول الكونت فولك برْنادوت، النائبُ السابقُ لرئيس الصليب الأحمر السويديّ، عن الفلسطينيين الناجين من «مسيرة اللّدّ الميتة» ـ وهي أمرٌ بالطّرد كان قد صَدَرَ عن رئيس الوزراء الإسرائيلي دايڤيد بن غوريون، ونفّذَه رئيسُ العمليات إسحاق رابين ـ: «لقد اطّلَعْتُ على عددٍ كبير من مخيّماتٍ للأجنين، ولكني لم أرَ أبداً منظراً أفظعَ ممّا رأتْه عيناي هنا». لقد هلك، ربّما، أكثرُ من نصف التشيروكيين الخمسةَ عشر ألفاً الّذين أُكرِهوا على الذهاب إلى المنفى. غير أنّ [عمليّة] «درب الدموع» من وجهة نظر وزير حرب الولايات المتحدة كانت «سياسةً كريمةً ومستنيرةً... نُفِّذتْ بمقدرةٍ وحصافة.. وبسرعةٍ وإنسانيةٍ جديرةٍ بالثناء... لقد عومل التشيروكيون بمشاعر لطيفة ومُرضية... ولم تكن [العمليةُ] خاليةً من العنف، ولكنْ بمراعاةٍ ملائمةٍ تماماً لمصالحهم»! كما أنّ الموظّف المسؤول عن الشؤون الهندية حيّا طَرْدَ التشيروكيين بوصفه «مثالاً ساطعاً على تحرّر الحكومة [أو تسامحها].... لقد حافظنا على المشاعر الطيّبة، وقُمنا بهدوءٍ ولطفٍ بنقلِ أصدقاء إلى الضفة الغربية من الميسيسيپي». وأَعْلَمَ الرئيسُ مارتن ڤان بيورن*** الكونغرسَ في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٣٨، وبـ «سعادة خالصة»، بـ «الترحيل الكامل للأمّة التشيروكيّة»، وأردف: «لقد هاجروا دون أيّ ممانعة ظاهرة». وأما بن غوريون فإنّه لم يأتِ بجديدٍ في خطابه أمام مجلس الشعب عام ١٩٤٨ حين قال إنّ العرب ـ الذين كانوا قد طُردوا بوحشيةٍ من فلسطين ـ تخلّوْا عن «مدنٍ... بسهولة كبيرة... مع أنّه لم يواجههم أيُّ خطرٍ ناتجٍ عن تدميرٍ أو مذابح»!

شهد دو توكفيل كيف دَمّرت الولاياتُ المتحدة التشيروكيين، فقال إنه من المستحيل تدمير أمّةٍ بقدرٍ أعظم من الاحترام للقوانين الإنسانية!

وإذ أعاد دو توكڤيل إلى الأذهان أنّ ترحيل التشيروكيين إنّما تحقّقَ من وراء واجهةٍ كاذبةٍ من المعاهدات («وبأكبرِ قدرٍ من المحبّة العفيفة للشكليات القانونية»)، فقد سخر من زَعم الولايات المتحدة أنها توصّلتْ إلى أهدافها «دون انتهاكٍ لأيّ مبدإٍ من المبادئ الأخلاقية العظيمة في أعين الناس؛ ذلك أنّ من المستحيل تدميرَ رجالٍ بقدرٍ أعظم من الاحترام للقوانين الإنسانية» [من ذاك الذي دَمّرتْ به الولاياتُ المتحدةُ التشيروكيين][!].

غير أنّ الأمة التشيروكيّة، أسْوةً بالعَنْقاء التي تنبعثُ من الرّماد كما يذهب المثلُ السائر، انبعثتْ هي الأخرى من جديد بعد «درب الدموع». وستبدو المأثرةُ أشدّ بروزاً إنْ

---

* ـ يَستخدم المؤلفُ لفظ niceties تهكّماً، وهو يقصد أن الولايات المتحدة والمتعاونين معها لا يعيرون الديموقراطية كلّها ـ لا سماتِها المرهفةَ فحسب ـ أيَّ اهتمام. (المترجم)

** ـ Confederacy: الولاياتُ الجنوبيةُ الإحدى عشرة التي انفصلت عن الولايات المتحدة الأميركية عامَيْ ١٨٦٠ و ١٨٦١. (المترجم)

*** ـ Van Buren هو الرئيس الثامن للولايات المتحدة، وقد حكم بين عامي ١٨٣٧ و١٨٤١. (المترجم)

نحنُ أخذنا بالاعتبارِ الآفاقَ المعتمةَ التي واجهتِ التشيروكيين في ظل «الحكم الذاتي» الذي اقترحه جاكسون لهم. والحقّ أن اسرائيل، بوضعها مخطّطَ «الحكم الذاتيّ» الفلسطينيّ، تبدو اليومَ وكأنّها سرقتْ صفحةً من كتاب جاكسون. لقد كان الوطنُ التشيروكيُّ الجديدُ، الواقعُ في ما هو اليومَ شماليّ شرقي أوكلاهوما، كلُّه تقريباً «غيرَ ملائم للزراعة.. وغيرَ ذي قيمة على الإطلاق»، وفقاً لكلمات أحد الموظفين الفيدراليين. وكان الحكمُ الذاتي الذي وُعِدَ بِهِ التشيروكيّون مُطوّقاً من كل الجهات. وتضافرتْ عدةُ أمورٍ «لإضعاف سيادةِ القبيلة»: من «وجود عملاء فيدراليين وارتباطاتٍ عسكرية»، إلى «القهر الاقتصادي» بما في ذلك «تحكُّمُ حكومةِ الولايات المتحدة في كيس الأموال» [المخصّصة] للأرصدة الحيوية التشيروكية، وأسبقيّةِ قانونِ الولايات المتحدة «في كل القضايا التي تتعلّق بالهنود والبيض». وساهمت «حربٌ أهليةٌ دموية» في تحطيم الأمة التشيروكيّة، ورافقها «إحراقُ مبانٍ وأملاكٍ، واغتيالاتٌ، كانت تتمّ بشكل اعتيادي»؛ وقد خيضت هذه الحربُ بشكل أساسي بين الفصائل التي دَعَمت اتفاقية «نيو إيكوتا» وتلك التي عارَضتْها. وبعد أن وصلتْ أخبارُ هذا النزاع الداخلي إلى الشرق [الأميركي]، صارت «الفكرة الشائعةُ» في الصحف - التي ادّعتْ ذات يَوم أنها متعاطفةٌ مع التشيروكيين - أنّ «القبيلةَ الأكثرَ تحضُّراً في أميركا ترتدّ الآن إلى البربرية». ولاحظ ويليام ج. ماكلوفلين أنّ الحرب الأهلية في صفوف التشيروكيين «تنسجم بسهولةٍ مفرطةٍ مع الصورة المنمّطة عن وحشيةِ الهنود ولصوصيّتهم اللتيْن يُفترض أن تكونا فطريتيْن وغيرَ قابلتيْن للاستئصال». وإذ يؤدّي اتفاقُ أوسلو - كما كان محتّماً - إلى نزاعٍ أهليٍّ عنيفٍ بين الفلسطينيين، فإنّ «صحف السّاحل الشرقي» [من الولايات المتحدة الأميركية]» ستتخذ دونَ شكٍّ الوضعةَ ذاتَها من اليأس من «بربرية» العرب.

وهكذا استنتج التشيروكيون، بحسب ماكلوفلين، أنّ «أملهم الأوّل في أن يُدْمَجوا على قدم المساواة [مع مواطني الولايات المتحدة]... أمرٌ مستحيل»، بعد نصف قرنٍ من «الجهود المتواصلة» التي بذلتْها الولايات المتحدةُ من أجل «ترحيلهم». واستنتجوا أنّه قد «كُتِب عليهم أن يصيروا مواطنين من الدرجة الثانية» في أحسن الأحوال. ولم يكن أمامهم من خيارٍ سوى «الاعتمادِ على قادتهم هم، ومساندةِ حكمهم الذاتيّ». ووفقاً لذلك «استخدم التشيروكيون المفهومَ الأوروبيَّ للأمّة Nationhood* للدفاع عن حريّتهم وعن قاعدةٍ لهم في الأرض». ونجحت الأمةُ التشيروكيّةُ في البقاء على قيد الحياة، بل وفي الازدهار - وإنْ إلى أجل محدد - بالرغم من سيادتها الموهونة والعقبات المثبِّطَةِ المنثورة في طريقها. والحق أنّ هذه الأمّة بحلول الخمسينات من القرن الثامن عشر كانت تزدهر كما لم تزدهر من قبلُ، وكانت خزانةَ عرضٍ [«ڤيترينةً»] أمام الزوّار الأجانب لما يُمْكن أن يحقّقه الهنودُ من تطوّرٍ في «الحضارة» و«التنصُّر». وامتُدِحَتِ الأمّة التشيروكيّة بوصفها «أثينا الغرب»، وكانت تتمتّع بـ «مستوى عيشٍ يُضاهي مستوى عيشِ جيرانهم في آركانسا وكانزاس وميزُوري، إن لم يفُقْه»، وبمستوى معرفةٍ بالقراءة والكتابة «أفضلَ بدون شكٍّ». وبالإجمال، أظهر التشيروكيّون «أنهم مجتمعٌ متقدِّمٌ... كأفضل ما يمكن العثور عليه» في أيّ مكانٍ على الحدود. ومع ذلك سُحِقوا، مرةً أخرى، بقوةٍ «سياسيةٍ إمبرياليةٍ» ماحقةٍ لم يكن ممكناً وَقْفُها مع حلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكان دو توكڤيل قد تنبّأ أصلاً عشيّةَ ترحيل التشيروكيين من ڤيرجينيا «بأنّ ذلك الجمهور نفسه، الذي يضغط الآن من حول التشيروكيين، سوف يجيء بلا ريبٍ خلال سنوات قليلةٍ في أثرهم من جديد». ولقد استُخْدِم دعمُ التشروكيين «الغادرُ» المزعومُ «للاتحاد الفدرالي» ذريعةً من أجل انتزاع تخلّياتٍ كانت في الأصل مَطْمعاً (من قبل مصالح سكة الحديد، ومضاربي الأراضي، والمستوطنين العاديين) قبل الحرب الأهلية؛ وهو ما يشكّل واقعةً سابقةً لمصير الفلسطينيين أثناء «حرب» الخليج وبعدها. والواقع أنّ سياسة التعدِّيات، التي تجددتْ، كانت قد استُهِلّتْ بواسطة الرئيس لينكولن. وأُجبر التشيروكيون، بحكم شروط معاهدة «فورت سميث» عام ١٨٦٦، على تسليم عددٍ أكبر من الأراضي، وعلى فتح المتبقي منها أمام السكك الحديدية. وبالطبع، فقد «ضمنتِ» الولايات المتحدة «للتشيروكيين امتلاكَ أراضيهم بهدوء وسلام...»، إلى آخر «القصة» [الكاذبة].

حدّدتْ إطلالةُ هذا القرن بدايةَ النهاية للأمة التشيروكيّة. وتصاعدتِ الضغوطُ، بدءاً من سبعيناتِ القرنِ الثامن عشر، من أجل فتح كلّ المناطق التشيروكيّة للاستيطان الأبيض. وفيما كانت شركاتُ سكك الحديد المنتَزِعةُ للأراضي تتقدّم [في هذه المناطق]، راح فيضٌ من المستوطنين البيض يتّبعون أثرها. وعلى هذا النحو ابتدأ تشظّي الفَضلةِ الأخيرة من الوطن التشيروكي. وإنّ المرء لَيَقرأ ما حدثَ لأمة التشيروكيين، بعد إدراك طبيعة ما حدث للفلسطينيين في تاريخهم الحديث، بحسّ من الألفة (déjà-vu). ويكتب

* - أو الشخصية القومية، أو الاستقلال القومي. (المترجم)

ماكلوفلين أنّ «بعض المستوطنين البيض» استولَوْا على «أراضٍ كان التشيروكيون يقولون إنّها لهم، وحين احتجّ التشيروكيون طَرَدَهم المُعْتَدون بالقوة، هكذا وببساطة... لقد عَدَّ سكّانُ الحدود البيضُ أراضي الهنود غيرَ المأهولةِ مباحَةً لاستيطانهم هم». وآمن المستوطنون، على حد قول أحدِ ضبّاط جيش الولايات المتحدة، أنّ «كل الأراضي غير المأهولة التي تخصّ الهنودَ إنّما هي غنيمةٌ مجانيةٌ، أو أنها يجب أن تكون كذلك».

وكما حدث في عهد جاكسون، رفضتِ الحكومةُ الفدراليةُ «القيامَ بواجبها في ترحيل» المستوطنين «إلى أن أصبح عددُهم من الضخامة، وغدَا سلوكُهم ممّا لا يمكن السيطرةُ عليه، بحيث راحوا يقوِّضون كلَّ الجهود للحفاظ على النظام». وقد أمّنَت مقاومةُ التشيروكيين للمستوطنين، بدورها، للحكومة الفدرالية ذريعةً لهدم المزيدِ من سيادة التشيروكيين على أرضهم. ففي المناسبات القليلة التي رُحِّلَ فيها المستوطنون، لم يتم ذلك إلاّ لكي «يتمكن الكونغرس من تطوير هيكلٍ أكثرَ تنظيماً لفتح الأراضي أمام الاستيطان الأبيض». ولم تكن لدى التشيروكيين أيُّ أوهام عن الخطط الجارية على قدم وساق؛ فقد قارن أحدُ قادتهم مصيرَ أمّته بمصير الطرواديين (قائلاً «إنّ محتويات الحصان الخشبي التي أُفرِغتْ داخل أسوار طروادة هي التي مكّنتِ الإغريقَ من الاستيلاء على المدينة القديمة»)، ثم ربط الاستيطانَ غيرَ القانوني ـ الذي صادقتْ عليه فعلياً الحكومةُ الفدراليةُ ـ بسياسةِ «امتصاص وتفسيخ أصبحتْ بديلاً، على ما يبدو، لمذهب الإبادة extermination القديم».

وأخيراً علا نداءٌ يطالب بتوزيع قسم من الممتلكات التشيروكية المشاعة على أعضاء القبيلة الأفراد، وبإباحة ما سُمّي بـ «الفائض» (الذي قُدِّرَ بثلثين كاملَيْن من مجموع الأراضي) أمام الاستيطان الأبيض. وكان «الإنسانويون» و«محبّو الخير» [المدّعون] ـ بصورةٍ خاصةٍ ـ متصلبين إزاء إلغاء التشيروكيين للملكية القبليّة وتأسيسِهم ملكيةً فرديةً: فقد قيل إنّ «الملكية العامّةَ والتحضُّر» لا يمكن أن «يتعايشا»، وإنّ «الأنانية» هي في «أساس التحضّر».

ومع انعطافة القرن [العشرين] أذعنتِ الأمةُ التشيروكيةُ لتحصيص أراضيها على الأفرادِ* دون أن يكون لهم فيها شركاء. وإنْ هي إلاّ فترةٌ قصيرة حتى كانت أصغرُ القطع التي أُعطيتْ للتشيروكيين تقع هي نفسُها في أيدي البيض. وما إن تفكّكت أوصالُ أراضي التشيروكيين المشاعة، كما تلاحظ أنجي دَبو Debo في سردها الكلاسيكي [الممتاز]، حتى نشأتْ «احتفالاتٌ معربدةٌ من الانغماس في الاستغلال بلغتْ مبلغاً عصيّاً على التصديق». فخلال جيلٍ واحد فقط جُرِّدَ هؤلاء الهنودُ من كُلِّ ممتلكاتهم تقريباً، وأُنقذوا من الموت جوعاً بفضل الأعمال الخيرية العامة وحدها، مع أنهم كانوا في السابق يَمْلكون ويَحْكمون منطقةً أكبر مساحةً وأعظمَ بالإمكانات المادية من كثيرٍ من الولايات المتحدة! وتستدعي «دبو» إلى الأذهان أنّ «بإمكان المرء عند الاقتراب من مستوطنةٍ هندية أن يتأكد من أنّه لن يجد إلاّ أرضاً لا قيمةَ لها». وبالمناسبة، فإنّ سلب الأراضي التشيروكية وتدميرَ الأمة التشيروكية تدميراً نهائياً أمران يَسَّرَهُما ـ بشكلٍ حاسمٍ ـ المتعاونون التشيروكيون؛ وهؤلاء ـ بمعيّةِ طبقة صغيرة من المقاولين التشيروكيين ـ «واصلوا إثراءهم في الظروف الجديدة».

وإذْ جُرِّدتْ أمةُ التشيروكيين من قاعدتها المناطقيّة، فقد خسرتْ في مدًى قصيرٍ آخرَ مظاهر سيادتها. ووسّعتْ حكومةُ الولايات المتحدة بسرعةٍ نطاقَ سلطتها، على حساب الوظائف القبلية الأساسية. وحين أصبح التشيروكيون «قِلّةً عدديّةً بشكلٍ ميؤوس منه» بين المستوطنين البيض، دُمِجُوا في الجمهورية الأميركية مواطنين في ولاية أوكلاهوما الجديدة. (لم يشكّل التشيروكيون عشيّةَ قبولهم في ولاية أوكلاهوما عام ١٩٠٧ إلاّ ٥٪ فقط من مجموع السكّان). ويعلّق مؤرِّخان بالقول: «إنّ أحداث التحصيص allotment ودمج [التشيروكيين في الولايات المتحدة] لهي، بأيّ مقياسٍ موضوعي، كارثةٌ هائلة»، بالنسبة إلى التشيروكيين بالطبع. ويَخْلص ماكلوفلين، بعد أن يمضي بالقصة إلى وقتنا الحاضر، إلى «أنّ التشيروكيين لا قاعدة أرضية لهم اليوم... وعلى الرغم من أنهم يحظَوْن كقبيلةٍ باعترافٍ شرعيٍّ، وينتخبون زعيمَهم بأنفسهم، فإنهم يفتقرون إلى السيادة. لقد خلّف التشيروكيون سجلاً بارزاً من النضال في معركةٍ لامتكافئةٍ، من أجل أن يبقوا شعباً سيّداً». غير أنّ المرء ليأمل ـ وليس لهذا الأمل من أساسٍ يُبنى عليه ـ أن لا يُكتب على شاهدِ قبرِ الشعب الفلسطيني مثلُ كلام ماكلوفلين!

لقد تنبّأتْ هيلين هانت جاكسون في **قرنٍ من العار**، وهو دراسةٌ لافتةٌ نُشرتْ في الوقت الذي كانت فيه الأمةُ التشيروكيّةُ تواجه آخر مِحَنِها المحتومة، بأنه «سوف يأتي زمنٌ في المستقبل البعيد» يظهر فيه «سِجلُّ الولايات المتحدة في الغدر» بالتشيروكيين «عصيّاً على التصديق تقريباً». والحقّ أن قلّةً اليوم يرغبون في الدفاع عن سجلّ الولايات المتحدة.

ولعلّ الإسرائيليين هم أيضاً سوف ينظرون ذات يوم إلى الماضي غيرَ مصدِّقين ما ارتُكِبَ بحقّ فلسطين...

---

* ـ أي توزيعها عليهم حصصاً. (المترجم)